العلاقات السياسية بين زعماء المسلمين والصليبيين من خلال المؤرخة المنسوبة إلى القائد الأرمني سمباد

د. عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي

في عام ١٨٦٩م، قامت «الأكاديمية» الفرنسية للتوثيق والآداب في باريس بنشر أجزاء من هذه المخطوطة ضمن وثائق أرمنية، وقام بترجمتها إدوار دولوريه، ثم نشرت عام ١٩٠٦م ضمن «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية»، وفي عام ١٩٤٠م، كان كلود كاهن أول مؤرخ غربي يلفت الأنظار إلى أهمية هذه المخطوطة وذلك في كتابه "La Syrie du Nord" : «شمال سوريا في عصر الحروب الصليبية». وقد سمى سمباد بـ «المؤرخ الملكي».

وفي عام ١٩٧٢م قام جيرار ديديان بدراسة الجزء الأصلي من الحوليات إلى سنة ١١٥٩م في رسالته للدكتوراه/الحلقة الثالثة. وأخيراً نشرها في هذا الكتاب موضع دراستنا [Smbat. p.8].

وفي عام ١٩٨٠م صدر عن «الأكاديمية» الفرنسية للتوثيق والآداب، كتاب، عنوانه: «المؤرخة المنسوبة إلى القائد سمباد» من ترجمة وتعليق جيرار ديديان، ونشرته مكتبة بول جتنر الاستشراقية في باريس. LA CHRONIQUE ATTRIBUEE AU CONNETABLE SMBAT TRAD. ET NOTES, PAR GERARD DEDEYAN. GEUTHNER. PARIS

ولكن السؤال المطروح: من هو سمباد ؟

هو من الأسرة الأرمنية الحاكمة، أخو هيثوم الأول، وأحد رجال ليون الثاني، يوصف أحياناً بـ «أخ الملك».

قال عنه كلود كاهن في كتابه «*شمال سوريا في عصر الحروب الصليبية*» : «***سمباد أخ الملك الأرمني هيثوم الأول، ومقدم جيوشه، ترجم سجلات أنطاكية، وألف مؤرخته معتمداً على متى الرهاوي وجريجوري الراهب، وعلى مذكراته الخاصة، ولكنه يمثل وجهة النظر الرسمية للملك هيثوم، توقف في كتابته عند سنة ١٢٧٤م، إنه «المؤرخ الملكي» الذي ظل مجهولاً إلى أن ذكره اليشان في كتابه «ليون العظيم»*** انظر: CAHEN (C.). La Syrie du Nord a l'Epoque des Croisades p. 99.

وإلى جانب دوره العسكري، فقد كان دبلوماسياً، وسفيراً إلى المغول من قبل أخيه هيثوم الذي أرسله عام ١٢٤٧م ليقابل الخان الأعظم، ثم عاد عام ١٢٥٠م. [Op. Cit. p. 696].

ويؤكد كاهن أن سمباد كان في الجيش الأرمني الذي هزمه بيبرس عام ١٢٦٦م، ولكنه نجا من القتل والأسر. مات عام ١٢٧٦م. [Op. Cit. p. 715].

أهمية المؤرخة :

أ) تستمد هذه المؤرخة أهميتها التاريخية، من كونها نتاج رجل عسكري وسياسي، ينتمي إلى البيت الأرمني في قليقية. وقد حفظ نصوصاً أرمنية من الضياع.

ب) شارك مؤلفها في معارك ضد المسلمين، وفاوضهم، وعرفهم عن كثب، ومن المحتمل أنه اطلع على كتب مؤرخيهم كابن الأثير، لوجود روايات تتشابه مع ما ذكره ابن الأثير في كتابه.

جـ) كان ذا صلة بصليبي أنطاكية، رغم أن اهتمامه بذلك، كان امتداداً للحق الأرمني الوراثي في الإمارة الصليبية.

د) تعاطف مع «**الإخوة : الداوية والإسبتارية**» وصورهم بأنهم رجال المسيح المخلصين، وأظهر البطاركة بمظهر يليق بمنصبهم الديني، ورغم ذلك فقد كان لاهتمامه هذا أثر بشمولية أخباره، وإن كانت عاطفته الدينية تجني على الحقيقة أحياناً.

هـ) أورد ذكر الحملات الصليبية: الثالثة، الخامسة، حملة إدوارد، وإن كان حديثه عنها مقتضباً، وأشار إلى الحملتين الرابعة والسادسة.

و) اهتم بالشؤون البيزنطية، وإن كانت روح العداء بين القوميتين، تستتر أحياناً خلف السطور، فقد أورد عن البيزنطيين ماله مساس بالجبهة الصليبية والأرمنية.

ز) عني بأخبار السلاجقة بصفتهم جيراناً إقليميين، وحرص على ذكر علاقاتهم مع البيزنطيين.

ح) انفرد بنصوص حول ما دار بين صلاح الدين والزعماء الصليبيين الأسرى في حطين، موقف صلاح الدين من افرنج أنطاكية عندما اجتاحتهم المجاعة، حيث أرسل إليهم طعاماً.

ط) تحدث عن المغول، وسقوط بغداد، واحتلال حلب من قبل الجيش المغولي، وقضية سنقر الأشقر أحد قادة بيبرس الذي أسره المغول وأطلقة الأرمن بمفاداة.

ماهية الدراسة :

لقد اخترت من هذه المؤرخة نصوصاً تتضمن علاقات سياسية بين زعماء مسلمين وصليبيين وأرمن، وقمت بمقارنتها بنصوص من مؤرخين مسلمين، وصليبيين، وغربيين قدامى ومحدثين، وذلك لتصحيح فكرة، أو توضيح لبس، أو إضافة معلومات ناقصة، بغية استكمال صور الحوادث التاريخية. وقد تحريت الدقة بترجمة النصوص من الفرنسية، وحرصت على انتقاء الكلمات المطابقة لها في العربية، وذلك بالاستعانة بقواميس معتمدة، ومما حفزني على إنجاز هذا العمل العلمي، خلو المكتبة العربية من هذا الكتاب لا مترجماً، ولا مقتبساً منه، فأردت أن أسهم بجهد عله يفيد ذوي الاهتمام بتاريخ الحروب الصليبية.

وإني لعلى ثقة من أن أساتذتي المختصين، وزملائي المؤرخين، سيتحفونني بملحوظاتهم تجاه هذا البحث، بغية تجلية الحقائق التاريخية. والله الموفق.

نور الدين زنكي والإمبراطور البيزنطي مانويل :

عندما وصلت الحملة الصليبية الثانية إلى فلسطين عقد الصليبيون اجتماعاً في عكا في ٢٤ يونيو ١١٤٨م، وقرروا فيه مهاجمة دمشق، وكان هذا أمراً غير حكيم. إذ إن معين الدين أنر وزير دمشق كان على صلة بمملكة بيت المقدس فكان الأولى أن يستفاد منه كحليف قوي في المنطقة ضد نور الدين، ولكن الجيوش الصليبية حاصرت دمشق بعد شهر من قرار الحصار.

دب نزاع بين قادة الصليبيين حول مستقبل دمشق: هل تضم إلى مملكة بيت المقدس، أم تجعل إمارة مستقلة، وعندئذ من سيحكمها؟ لقد اختلفوا على الغنيمة قبل أن تحصل. أما أنر فقد كان على دراية باختلاف وجهات النظر الفرنجية، وكاتب بعضاً منهم، وبذل لهم مبالغ مقابل الرحيل، وفي الوقت نفسه راسل نور الدين من أجل مساعدته في فك الحصار الصليبي. وبعد خمسة أيام من الحصار رحل الصليبيون عن دمشق يوم ٢٨ يوليو، وعاد قادة الحملة الثانية إلى أوروبا دون أن يحققوا أهدافهم(١).

من جهة أخرى كان ريمون دو بواتييه أمير أنطاكية على حذر شديد من تحركات نور الدين؛ لأنه يخشى أن يكون مصير أنطاكية مثل مصير الرها، لذلك لم يبرح إمارته، الأمر الذي جعل الصليبيين يتهمونه بالتخاذل، وخطط ريمون لاغتيال نور الدين بتحالفه مع زعيم الحشاشين علي بن وفا، مما جراه على الهجوم على نور الدين في أفامية، على الطريق بين أنطاكية ومرعش في نوفمبر ١١٤٨م، ولم يقاوم جيش نور الدين الهجوم بل فضل الهرب لوجود خلاف بين القادة وفي يونيو ١١٤٩م نرى نور الدين يثأر من خصميه اللدودين: ريمون وعلي بن وفا فينتصر عليهما في بغراس ويقتلهما بيديه(٢). بعد مقتل ريمون أمير أنطاكية، أصبحت أرملته كونستانس أميرة على أنطاكية، وحيث إن ابنها بوهيموند الثالث لم يتجاوز الخامسة حين مات أبوه فقد اتجه الرأي العام إلى البحث عن رجل وصي عليه، وكان العلمانيون يكرهون أن يكون الوصي من رجال الدين، كما أن الأميرة بحاجة إلى زوج، وكان ابن خالتها بودوان الثالث ملك بيت المقدس قد جاء على عجل حينما علم بمقتل زوجها وأصبح وصياً على الإمارة ولكن مشاغله في مملكته جعلته يقترح عليها البحث عن زوج مناسب وعندئذ أرسلت كونستانس إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل تستشيره في الأمر، فاختار أحداً من أقاربه لم يعجبها(٣).

وفي عام ١١٥٣م وجدت الأميرة كونستانس بغيتها في فارس فرنسي كان قد قدم مع لويس السابع ولم يعد معه إنه رونو دو شاتيون، وتزوجته بموافقة الملك بودوان، وكان عليها من قبيل الاحترام أن ترسل إلى الإمبراطور مانويل تستأذنه في ذلك. ولكنه كان يعد حملة عسكرية ضد السلاجقة والأمير الأرمني توروس، لذلك اشترط مانويل مقابل اعترافه بإمارة رونو أن يناصره إفرنج أنطاكية ضد الأمير الأرمني، ووعده بمال فقبل رونو دو شاتيون ذلك واستطاع أن يجلي الأرمن عن

إقليم اسكندرونه الذي يعده الفرنج جزءاً من إمارة أنطاكية، ومنحه للداوية.

طلب رونو من الإمبراطور أن يفي بوعده ويرسل المساعدات المالية، وإزاء تلكؤ مانويل، عقد رونو صلحاً مع الارمن، وللحصول على المال قام باحتلال قبرص، وسجن البطريرك ايمري الذي كان يملك ثروة طائلة ولم يفرج عنه إلا بعد أن دفع مالاً كثيراً، ولا ننسى أن جزيرة قبرص كانت تابعة لبيزنطة، وحاكمها هو يوحنا كومنينوس، فكانت هذه الأعمال العسكرية التي قام بها رونو مع حليفه الأرمني في قليقلة وقبرص سبباً جعل الإمبراطور البيزنطي مانويل يخطط للقضاء على رونو، كما أن بودوان ملك القدس أوجس خيفة من توسع رونو ومغامراته العسكرية، ورأى أن من مصلحته التقارب مع بيزنطة، فأرسل سفارة إلى الإمبراطور يطلب يد تيودورا ابنة أخيه، فوافق مانويل على ذلك وأرسلها إليه، وفي الوقت نفسه كان مانويل بلا زوجة فأراد أن يبحث عن امرأة من أنطاكية وذلك عندما قام برحلة إلى أنطاكية عام ١١٥٩م، وعندما سمع رونو بتحرك الإمبراطور انتابه الخوف وأسرع إلى مقابلة الإمبراطور في المَصِّيصَة*، وجثا أمامه وأقسم أن ينفذ شروطه، فعفا عنه(٤).

كان لا بد لنا من هذه التوطئة، لنستطيع أن نسير مع نص سمباد الذي بدأ حديثه عن وصول مانويل إلى أنطاكية.

«***قرر ملك القدس وأمير أنطاكية وتوروس والأخوة التصميم على حماية النصارى، وعسكروا أمام أنطاكية. من جهة أخرى أرسل ملك القدس والزعماء الآخرون يحثون عاهل الإغريق [الإمبراطور البيزنطي مانويل] على إنقاذ البلاد النصرانية، فوافقهم على ذلك ووعدهم خيراً، ولكنه لا أمانة ولا أيماناً، فقد كان يخطط لدخول أنطاكية، ليس من أجل صلاحها وإصلاحها بل لغاية في نفسه، إنه كان يحلم بإحدى فتيات بوهيموند أمير أنطاكية***»(٥).

ثم يتحدث سمباد عن لقاء بودوان ملك القدس بمانويل الذي أعجب به، ومنحه هدايا ثمينة، هو وحاشيته ويبدو أن المؤلف قد تحامل على الإمبراطور وفرح بموقف أحد أفراد حاشية الملك:

«***أحد منهم يدعى فيليب أرسل إليه الإمبراطور ثلاث قطع من الذهب وثياباً فاخرة فما كان منه إلا أن أظهر امتنانه وشكره، وطلب من مرسول الإمبراطور أن يقول لسيده: نحن لم نات لقبض الذهب واستلام الكسوة، ولكن من أجل***

إنقاذ النصارى، فإذا كانت هذه نيتك فنحن معك، ورجالنا في خدمتك وجيوشنا تحت أمرك. وعندما تكون معركة ستراهم جنوداً مظفرين. أعط ذهبك لفقرائك، وإذا لم تكن كما نريد، منقذاً للنصارى فذهبك لا قيمة له في عيوننا»(٦).

ثم يصف سمباد دخول الإمبراطور إلى أنطاكية في موكب مهيب، تحفه الحاشية وقد اصطف الجنود والخدم والأهالي لرؤية مانويل وقد لبس تاجه المرصع بالذهب والأحجار الكريمة، على جواده المسرج بالذهب، يرافقه بودوان ملك القدس، ويتقدمهم أمير أنطاكية رونو دو شاتيون ماشياً على قدميه، ومضى الإمبراطور ومعه ملك القدس إلى وسط المدينة ثم زار كنيسة القديس بطرس وبعد ذلك عاد أدراجه إلى بلاده(٧).

سفارة مانويل إلى نور الدين :

«عندما رأى أمير حلب العظيم، نور الدين الجمع الكبير من حكام النصارى أصابه الهلع، وحصن مواقعه وقلاعه استعداداً للحرب، موزعاً قادته هنا وهناك ناقلاً غنائمه إلى الجانب الآخر وبعد بضعة أيام، أرسل الإمبراطور إلى نور الدين سفيراً ومعه رسالة يقول فيها: إن منطقة أنطاكية والرها وما حولهما ممن سُلبَ من النصارى، يجب أن تعاد إليهم مع عبيدهم الذين أسرهم نور الدين، فلما رأى السفير، وقرأ الرسالة، تنفس نور الدين الصعداء، وزال ما كان يعتريه من خوف، وحيث إنه ذكي وماكر فقد أدرك أن هذا الطلب لا يعالج بالرمح والسيف، بل بالورق والحبر، فكتب إلى الإمبراطور أنه لم يخضع لإدارة الإمبراطور وأنه لم ينظر في طلبه، ولم يكن أمام الإمبراطور إلا القوة إن استطاع، لذلك ما إن سمع رد نور الدين حتى دعى إلى اجتماع لاتخاذ الرد المناسب على نور الدين»(٨).

«ملك القدس، وأمير أنطاكية، والأسياد الأخرى كلهم سجدوا عند أقدام الإمبراطور قائلين: أيها العاهل العظيم، لا تبدل فرحتنا حزناً، لأن وحدتنا توهن أعداء المسيح، وإذا اخترت السلم معهم على الحرب فإنهم سيمحون بلمحة عين اسم المسيحية من على الأرض، وسوف يحتقرون الشعب النصراني، ونصبح عرضة لسخريتهم، ولكن الإمبراطور أجاب مدعياً أسباباً مهمة: جاءتني أنباء من العاصمة، لذلك سأعود إليها بسرعة. وأخذ يتذرع

بحجج واهية، بينما الكل حل بهم حزن عميق، وتوسلوا إليه بأن يبقى ثلاثة أيام يقوم خلالها بغزو حلب، ثم إذا شاء أبرم معاهدة سلام مع المسلمين.

لكن الإمبراطور لم يعر اهتماما لتوسلاتهم، ولم يهتم بمصالح النصارى. وهكذا أرسل نور الدين رسولا، يعرض عليه السلام وكانت مفاجأة سارة للمسلمين، لأنهم لم يكونوا متوقعين سوى الحرب والدمار. ومن فرط جذلهم لم يصدقوا الخبر، وعندئذ أرسلوا الهدايا القيمة إلى مانويل: خيولا أصيلة وبغالا جميلة وخمسين أسيراً صليبياً، هذا الإمبراطور البيزنطي الشجاع، جاء كنسر عظيم وعاد كثعلب ذليل، وبكل جحافله غادر نحو بلاده كجندي فار، حتى إذا ما كان في بلاد السلطان قلج أرسلان انقض التركمان على مؤخرة جيشه وقتلوا أحد عشر ألفاً مما نجم عنه عداوة مستديمة بين الملك والسلطان»(٩).

القارئ لهذا النص، يشعر بمدى العداء التقليدي بين الأرمن والبيزنطيين فقد تحامل سمباد على الإمبراطور، واتهمه بمحاولة شراء الزعماء الصليبيين وبالكذب والأنانية، وأرى أن الإمبراطور مانويل لم يشأ أن يضحي بمصالحه من أجل الصليبيين، الذين يكنون للبيزنطيين العداء. ولم يرد أن يدخل في حرب مع المسلمين، حتى لا يقطعوا عليه خط الرجعة إلى بلاده التي كانت هي الأخرى لا تخلو من قلاقل.

صمت سمباد في حديثه عن الأزمة بين قلج أرسلان والإمبراطور مانويل، فلم يذكر ما حدث بينهما من اتصالات حيث قام الجيش البيزنطي بمهاجمة الأراضي السلجوقية بعد ثلاثة أشهر فقط من حادثة الاعتداء على جيش الإمبراطور، والواقع أن قلج أرسلان في موقف حرج، فنور الدين زحف على الأراضي السلجوقية من الجنوب، والإمبراطور يعقوب أرسلان الدانشمند من الشمال الشرقي، أما مانويل فقد استفاد من الفرصة، وجاءته الإمدادات من الصرب وجزيرة رودس، لذلك كان انتصاره على السلاجقة حاسماً، مما اضطر قلج أرسلان إلى طلب الهدنة، على أن يعيد سائر المدن اليونانية إلى البيزنطيين، ويعترف بالحدود الفاصلة بين الدولتين، وكذلك نصت المعاهدة على وقف الغارات وتقديم فرقة جيش السلاجقة لتقاتل مع البيزنطيين إذا دعت الحاجة وعاد الإمبراطور إلى بلاده مصطحباً شاهنشاه شقيق السلطان. وللتصديق على هذه المعاهدة أرسل قلج أرسلان مستشاره النصراني كريستوفر إلى القسطنطينية، وفي ربيع عام ١١٦١م زار السلطان السلجوقي

العاصمة البيزنطية وسط استقبال كبير ومنحه مانويل هدايا قيمة، ويبدو أن هذا الكرم البيزنطي لم يكن من أجل السلطان، بل لكونه تابعاً للإمبراطور. وقد قوبلت هذه الزيارة من قبل زعماء المسلمين بالاستياء، بينما استفاد الحجاج الغربيون من هذا الصلح، فأخذوا ينهالون على الشرق دونما خوف(١٠).

مليح الأرمني ونور الدين:

يتحدث سمباد عن خيانة خطط لها مليح ضد أخيه توروس المنصور بن لاون. فقد دبر مليح خطة لقتل أخيه، ولكن توروس نجا بفضل قواته في الوقت المناسب، ويصف لنا سمباد لقاء الأخوين بقوله:

*«أمام قادة جيشه قام توروس بتوبيخ أخيه مليح الذي كشف عن حقده، ثم منحه الخلعة الأميرية: خيل وبغال وسلاح وأموال ثم نفاه واستولى على بلده دون أن يعاقبه على سوء عمله. أما مليح فقد قصد نور الدين سيد حلب، ودخل في خدمته، واستلم منه قورس * وتوابعها»*(١١).

ويبدو أن العلاقة بين نور الدين ومليح قد توطدت إلى حد أنه دخل قليقية بجنود مسلمين، واستطاع بهم هزيمة الأرمن المخالفين له، وأسر كثيرا منهم وقيدهم بالسلاسل وصادر أملاكهم وأهان الرهبان وخلع أسنانهم، وسلب ونهب وأفسد في البلاد(١٢).

ويذكر ميخائيل السرياني في تاريخه أن عدد أسرى مليح كانوا ستة عشر ألفاً باعهم كلهم في أسواق حلب(١٣).

وأعتقد أن هناك مبالغة من ميخائيل السرياني في عدد الأسرى المباعين بحلب، فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥٦٨هـ كلاماً حول علاقة مليح بنور الدين فقال:

«في هذه السنة، في جمادى الأولى، هزم مليح بن ليون الأرمني، صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب، عسكر الروم من القسطنطينية. وسبب ذلك أن نور الدين كان قد استخدم مليحاً المذكور وأقطعه اقطاعا سنياً وكان ملازم الخدمة لنور الدين، ومشاهداً لحروبه مع الفرنج ومباشراً لها، وكان هذا من جيد الرأي وصائبه، فإن نور الدين لما قيل له في معنى استخدامه وإعطائه الإقطاع من بلاد الإسلام قال: أستعين به على قتال أهل ملته، وأريح طائفة من عسكري تكون بإزائه لتمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له. وكان مليح أيضا يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم، وكانت مدينة

أذنه والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية، فاخذها مليح منهم لأنها تجاور بلاده، فسير إليه ملك الروم جيشاً كثيفاً وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه، فلقيهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم وصدقهم القتال، وصابرهم فانهزمت الروم وكثر فيهم القتل والأسر وقويت شوكة مليح وانقطع أمل الروم من تلك البلاد. وأرسل مليح إلى نور الدين كثيراً من غنائمهم ومن الأسرى ثلاثين رجلاً من مشهوريهم وأعيانهم، فسير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضيء بأمر الله وكتب يعتد بهذا لأن بعض جنده فعلوه»(١٤).

بهذا التفصيل من ابن الأثير، ندرك أن هناك اختلافاً بينه وبين سمباد حول الطرف الآخر في الحرب،و اتفاقا في عموم الحدث. أما سمباد فلم يشر إلى الروم بل إلى الأرمن المناوئين لمليح. في حين أن ابن الأثير اعتبر الروم طرفاً مباشراً في الحرب، والجمع بين ذلك هو أن المعارك التي تحدث عنها سمباد كانت في نطاق بلاد الأرمن، وعندما امتد مليح إلى الأراضي البيزنطية وقع المصاف بينه وبين الإمبراطور البيزنطي. أما ما يخص عدد الأسرى فإننا نجد أن سمباد أغفل ذلك مكتفياً بوصف الأعمال التي ارتكبها مليح ضد بني جلدته، بعبارات التهويل والمبالغة دون الخوض بالأرقام، أما ميخائيل السرياني فقد بالغ في ذلك عندما عد الأسرى المباعين بحلب بالآلاف، ولو كان الأمر بهذا القدر لذكره ابن الأثير وهو أقرب وأدرى من السرياني فيما يتعلق بأحوال المسلمين، وإذا كان ابن الأثير قد نص على أن مليحاً أرسل إلى نور الدين ثلاثين رجلاً من مشهوريهم فإن ذلك يعني ضمناً أن معهم آخرين من العامة لا يصل عددهم بأيّ حال من الأحوال إلى أربى من مئة.

صلاح الدين والزعماء الصليبيون في حطين:

يتحدث سمباد أثناء كلامه عن معركة حطين التي وقعت قريبا من بحيرة طبرية في ٤ يوليو ١١٨٧م عن اتفاق سري بين صلاح الدين وريموند كونت طرابلس، فقد كان الصليبيون في بداية الأمر يحتلون موقعاً مهماً في ميدان المعركة، قريباً من المياه، فارسل ريموند إلى صلاح الدين يقول له:

«ماذا تمنحني لو جعلت الفرنج يتركون مكانهم لك ولجيوشك حيث الماء، بينما يتحولون إلى أرض قاحلة؟ فوعده صلاح الدين أموالاً كثيرة وأبرم معه عقداً بذلك، وفوراً باشر الكونت الخائن نصيحته للفرنج قائلاً: ليس من الخير الإقامة هنا، هيا إلى الجبل نحمي به مؤخرتنا، وفعلاً صدقوا مقولته، وتركوا

المياه لصلاح الدين وجنده، ووقعت المعركة في يوم قائظ وسط رياح حارة فوقع الفرنج ضحية للسيوف والعطش»(١٥).

ويحسن هنا أن نورد ما قاله ابن الأثير عن علاقة ريموند صاحب طرابلس وصلاح الدين فقد تحدث عن زواجه بالكونتيسة سيبيل صاحبة طرابلس أم بودوان الخامس فأصبح ريموند وصيًّا على ملك الصبي ***«وقام بسياسة الملك وتدبيره لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأناً ولا أشجع ولا أجود رأياً منه، فطمع في الملك بسبب هذا الصغير، فاتفق أن الصغير توفي، فانتقل الملك إلى أمه، فبطل ما كان القمص (الكونت) يحدث نفسه به. ثم إن هذه الملكة هويت رجلاً من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب اسمه كي (جي لوزينيان) فتزوجته، ونقلت الملك إليه، وجعلت التاج على رأسه، وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والأسبتارية والدواية والبارونية، وأعلمتهم أنها قد ردت الملك إليه، وأشهدتهم عليها بذلك، فأطاعوه ودانوا له، فعظم ذلك على القمص، وسقط في يديه وطولب بحساب ما جبي من الأموال مدة ولاية ذلك الصبي فادعى أنه أنفقه عليه وزاده ذلك نفورا وجاهر بالمشاقة والمباينة وراسل صلاح الدين، وانتمى إليه، واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده بالنصرة، والسعي له في كل ما يريد، وضمن له أنه يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة، وكان عنده جماعة من فرسان القمص أسرى فأطلقهم، فحل ذلك عنده أعظم محل، وأظهر طاعة صلاح الدين، ووافقه على ما فعل جماعة الفرنج فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم، وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم»***(١٦).

وقد ذهب بعض المؤرخين الفرنج بعيداً في اتهام ريموند طرابلس بالخيانة العظمى وذلك بتواطئه مع المسلمين أثناء معركة حطين فقد ورد في تكملة تاريخ وليم الصوري أن ريموند اتجه وفرقته نحو المسلمين متظاهراً بالانقضاض عليهم فأفسحوا له المجال ليهرب إلى صور، بينما انقض المسلمون على الصليبيين وهزموهم(١٧).

وقد علق المؤرخ الفرنسي الشهير رينيه جروسيه في كتابه الضخم عن الحروب الصليبية على هذا الموقف بقوله: ***« إن ما فعله ريموند ليس خيانة بل هو تصرف فقد أنقذ جيشه من موت أو أسر محققين، وحفظ للصليبيين فيما بعد حرسا حموا الساحل الصليبي من السقوط.»***(١٨).

وبروح من الأسى والحسرة يستعرض سمباد ما حصل للأسرى الصليبيين بعد حطين وأبرز هذه الصور لقاء صلاح الدين بالملك جي لوزينيان ورنودو شاتيون:

«عندما وصل الملك إلى خيمة السلطان، هب للقائه، بكل احترام، وضمه بذراعيه، وقبله ثم أدخله بكل حفاوة إلى الخيمة وأجلسه على فرش وثير وقال له: «أيها الملك (المقدس) مرحبا بك ألف مرة في إقامتك مع أخيك ولا تحزن، فالقدر وراء المنتصر والمهزوم، أنت ملك عادل، محترم، مخلص، يعجبني فيك سمعتك الطيبة، وعدالتك لذلك لن تمس شعرة من رأسك، وبفضل تقديري لك وحبي لشخصك ساحرر الكثير من قومك»(١٩).

وكان رونو دو شاتيون قد أساء إلى المسلمين كثيراً ونكث عهوده معهم واستغل موقعه في حصن الكرك بشن غارات على قوافل الحج والتجارة الذاهبة والآيبة من وإلى الجزيرة العربية وعندما رآه صلاح الدين عامله بما هو أهله. وبادره قائلاً:

«إخسأ لم أقف من أجلك بل من أجل ملكك فقال له الأمير رونو: وأنا لا أشكرك بل أشكر مليكي. ثم طلب الملك ماءً فأمر السلطان له بماء ورد مثلج بكأس من ذهب فذاقه السلطان ثم ناوله الملك فشرب نصفه، ثم دفعه إلى رونو فشرب بقيته، عندئذ قال السلطان للأمير: لم أحضر الماء لك بل للملك. فقال الأمير: وأنا لن أقول شكرا لك بل للملك. فقال السلطان: إخسأ كم مرة منحتني عهوداً ومواثيق ولم تف، لقد قتلت وأسرت جماعة منا واستوليت على خزينة لي في طريق دمشق إلى جانب العديد من إراقة الدماء دون أن تتذكر وعودك بعدم الاعتداء، فقال الأمير: لا تصرخ عالياً، وافعل ما بدالك. أربعون سنة وأنا أجود بدمي ضد المسلمين، إنني أسخر من الموت. عندئذ أشار السلطان إلى عبيده فقيدوه ثم تناول سيفه، و قطع رقبته، ثم نظر إلى الملك الذي انتابه الذعر الشديد وطمانه قائلاً: لن تذوق الموت مثل هذا الذي خانك»(٢٠).

ولم تختلف رواية سمباد حول ما جرى بين صلاح الدين والملك جي دو لوزينيان كثيراً عما أورده ابن الأثير إذ قال:

«فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته، وأحضر ملك الفرنج عنده، وبرنس صاحب الكرك، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فسقاه ماء مثلوجا، فشرب منه، وأعطى برنس الكرك، فشرب، فقال صلاح الدين: إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني، ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه، وعدد عليه غدراته، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته وقال:

كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به: إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدراً فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت فرائص الملك، فسكّن من جاشه وأمّنه» (٢١).

ثم جيء إلى صلاح الدين بالداوية يقدمهم زعيمهم جيرار دو ردوفور والإسبتارية، فقال السلطان لجيرار:

« أيها الرئيس المحترم، لقد حاولت تحطيم جزء من جيوشنا، ومن جهتي فإنني أحبك من أجل بطولتك، وسوف أمنحك أعطيات، وتشريفاً، و يكون لك منصب رفيعٌ في مملكتي إذا أسلمت. فقال جيرار: أيها السلطان العظيم أنا ممتن لهذا الكرم والتشريف، لكن يجب أن أتشاور مع إخواني وأنصحهم بالإذعان لك. فأذن له السلطان قائلاً: من يقبل طلبي يحيا. فذهب القائد الصليبي إلى قومه وألقى فيهم موعظة، حثهم فيها على تفضيل الموت في سبيل المسيح ثم حضر إلى السلطان وقال له لقد اخترنا الموت على البقاء فاقض ما أنت قاض. عندئذ أمر السلطان بقتلهم، فشع في السماء نور ظل ثلاثة أيام من أجل أرواح الشهداء، بعد ذلك أطلق السلطان الملك جي وحاشيته ومنحهم هدايا قيمة» (٢٢).

أما ابن الأثير فقد أورد ما حدث لفرسان الداوية والإسبتارية بقوله: إن صلاح الدين ***«أمر بمن أسر من الداوية والإسبتارية أن يجمعوا ليقتلهم ثم علم أن من عنده أسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه، فبذل في كل أسير من هذين الصنفين خمسين دينارا مصريا، فاحضر عنده في الحال مئتا أسير منهم، فأمر بهم فضربت أعناقهم، وإنما خص هؤلاء بالقتل لأنهم أشد شوكة من جميع الفرنج»*** (٢٣).

وفي الوقت الذي يقول فيه سمباد إن السلطان حرر الملك، نجد ابن الأثير يذكر في معرض حديثه عن فتح القدس أن صلاح الدين ***«أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها كان يقوم بالملك وأطلق مالها وحشمها، واستأذنته في المصير إلى زوجها وكان حينئذ محبوسا بقلعة نابلس، فأذن لها، فاتته وأقامت عنده»*** (٢٤).

احتلال القدس:

لم يتحدث سمباد عن مقدمات الفتح بل بدأ حديثه عن موقف صلاح الدين من صليبيي المدينة المقدسة فقال:

«أمر السلطان أن يؤخذ من كل ساكن في القدس ضريبة درهما مصريًا، ويحمل كل ما يستطيع حمله من منزله ويذهب بسلام. أما من يفضل البقاء فعليه الجزية السنوية درهم أحمر. أناس بقوا وآخرون غادروا. بينما صلاح الدين استولى على القدس والساحل ومنطقة أنطاكية وأصبح الصليبيون في خوف منه»(٢٥).

أما ابن الأثير فقد ذكر أن صلاح الدين عندما أحكم الحصار على القدس وأدرك الفرنج أن المدينة ستقع بأيدي المسلمين، اتفق رأيهم على إرسال وفد منهم إلى صلاح الدين في طلب الأمان فرفض ذلك مذكرا إياهم بما فعل أسلافهم عندما احتلوا القدس سنة ٤٩٠هـ، فلما عادوا إلى قومهم أرسل باليان بن بيرزان (باليان دابلين أو العبليني) يستأذن صلاح الدين للمثول بين يديه، وسأله الأمان للفرنج، وعندما أبى صلاح الدين قال باليان:

«أيها السلطان إعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، ظنًا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نتركم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهما. ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم قتلنا من عندنا من المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يُقتل الرجل حتى يَقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كراما»(٢٦).

فاستشار صلاح الدين أصحابه، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، مقابل ضريبة خروج على الرجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة والطفل ديناران. فمن دفع نجا بنفسه وثروته وإلا أصبح في حكم الرقيق. وقد أطلق باليان من ماله ثمانية عشر ألف رجل، وظل ستة عشر ألفاً من الرجال والنساء والولدان لم يستطيعوا دفع الضريبة(٢٧).

وقد ورد في تكملة تاريخ وليم الصوري أن نساء وبنات الفرنج القتلى والأسرى في حطين جئن إلى صلاح الدين يبكين، فأشفق عليهن وأمر بإطلاق أزواجهن وأقاربهم، ودفع ديات القتلى إليهن(٢٨).

الحملة الصليبية الثالثة:

بعد سقوط القدس، استشعر نصارى أوروبا خوفاً من الخطر الإسلامي الذي يهدد الوجود الصليبي في فلسطين، لذلك أرسل كونراد دومونفرا الوصي على مملكة بيت المقدس، جوس رئيس أساقفة صور إلى أوروبا يحمل نبأ احتلال القدس، وفي الوقت نفسه يلتمس مساعدة أمراء الغرب في استرجاع ما استولى عليه صلاح الدين، وكان ملك صقلية وليم الثاني أول المستجيبين لهذا النداء، فقد أرسل في مارس عام ١١٨٨م أسطولاً من مئتي فارس تحت قيادة الأميرال مارقري(٢٩).

وفي رواية وردت في تكملة تاريخ وليم الصوري مفادها أن فارساً كان ضمن إرسالية ملك صقلية قابل صلاح الدين ولقي منه كل ترحاب، بل إن السلطان أهدى الفارس هدية وخيولاً وعرض عليه الانضمام إلى الجيش الأيوبي. ولكن الفارس رفض كل هذا، وأخبر السلطان أنه لم يات ليقيم مع المسلمين ولا ليقبل هداياهم، بل لنصرة الصليبيين في فلسطين(٣٠).

أما ابن الأثير فقد ذكر أن مقدم هذا الأسطول طلب من السلطان الأمان ليحضر عنده، فأمّنه، وحضر وقبل الأرض بين يديه، وقال ما معناه:

«إنك السلطان رحيم وكريم، وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا، فاتركهم يكونون، وإلا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظم عليك الأمر ويشتد الحال»(٣١).

أيًّا من هذه المعلومات لم يوردها سمباد في مؤرخته، والسبب أنه استهل الحديث عن الحملة الثالثة بقدوم إمبراطور الألمان إلى الشرق عبر بلاد الأرمن بعد شهر مايو من عام ١١٨٩م؛ لأنه يهتم بما يحدث قريباً من داره وكان هذا الإمبراطور أول من قدم من أوروبا.

«اتخذ ملك الألمان طريقه إلى الشرق عبر القسطنطينية، مارًّا بقونية فاحتلها ملحقاً الهزيمة بجيش قليج أرسلان، الذي سلمه ثلاثين رهينة ومئة ألف درهم، واتفق معه على السلام، ثم تابع الإمبراطور سبيله إلى أرمينية الصغرى، حيث عَنَّ له أن يغتسل في بحيرة لأن الصيف كان شديداً. والسفر كان مضنياً، وفجأة فقد توازنه نظراً لكبر سنه فغرق ويقال إن أحدهم تنبأ له بالموت غرقاً لذلك آثر الذهاب إلى الشرق عبر اليابسة. وقد واصل ابنه السير حتى عكا حيث مات هو الآخر بعد ذلك بستة أشهر وتبعثر جيشه»(٣٢).

وكان ملك فرنسا إبان الدعوة إلى الحرب الصليبية الثالثة في قتال مع ملك بريطانيا هنري الثاني، وبعد اتفاقهما على السلام قررا السفر معاً إلى الشرق، غير أن هنري الثاني مات فخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد الذي قام مع الملك الفرنسي بالرحلة إلى الشرق(٣٣).

بدأ سمباد حديثه عن الملك الفرنسي بقوله: «*وصل ملك فرنسا بجيوشه إلى عكا (٢٠ إبريل ١١٩١م) حيث حاصر المدينة، فأسرع صلاح الدين لإنقاذ البلد وحاميتها، وعسكر إزاء الفرنج، وقام الجنود الفرنسيون بحفر ثلاثة خنادق من جهة الماء وضيقوا الخناق على عكا ولم يستطع صلاح الدين فعل شيء. وفي هذه الأثناء وصل ملك انجلترا إلى قبرص حيث احتلها واصطحب الدوق البيزنطي كومنين إلى عكا. وضغط الملكان على السلطان وسكان المدينة. عندئذ أرسل السلطان يقول للملكين: خذوا مدينتكم وبيعوني رجالي بوزنهم ذهباً أو فضة، فردوا عليه: بودنا لو فعلنا ذلك من أجلك ولكن سبق أن أقسمنا أمام كنيسة القيامة لَنَغْزُوَنَّ العالم بحد السيف ولن نحنث باليمين. ثم احتلوا المدينة (١٢ يوليو ١١٩١) وقتلوا ستة وثلاثين ألف رجل بينما هرب صلاح الدين*(٣٤).

هكذا أنهى سمباد كلامه عن الحملة الصليبية الثالثة. بينما فصل ابن الأثير ذلك بكل دقة، ونكتفي بما يقابل نص سمباد فقد أكد ابن الأثير أن صلاح الدين لم يستطع مساعدة المسلمين المحاصرين في عكا من قبل الفرنسيين والإنجليز، الأمر الذي أدى إلى اقتحام المدينة يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة من سنة ٥٨٧هـ، وكانت المفاوضات قد جرت بين الطرفين على إطلاق الأسرى من الجانبين، وأن يسلم السلطان صليب الصلبوت، فوافقهم صلاح الدين على ذلك، ولكنهم لم يقتنعوا وواصلوا حصار المدينة مما حدا بأميرها سيف الدين علي بن محمد الهكاري، المعروف بالمشطوب أن يعرض عليهم دفع مائتي ألف دينار، وتسليم خمسمئة أسير من الوجهاء، وإرجاع صليب الصلبوت، وأربعة عشر ألف دينار لكونراد دي مونفراد صاحب صور، مقابل خروج المسلمين من عكا سالمين، فأجابوه على أن تستوفى هذه الأموال خلال شهرين، وحلفوا له وتسلموا المدينة، ونكثوا عهودهم وحبسوا كل من فيها من المسلمين وراسلوا السلطان بإعادة الصليب والأسرى ودفع الأموال، فجمع لهم مئة ألف دينار، و اشترط عليهم أن يضمن الداوية إطلاق المسلمين، ولأن الداوية كما قال ابن الأثير «*أهل تدين يرون*

الوفاء، فقد قالوا: لا نحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا» ولم يتفق الطرفان. فقتل الفرنج معظم من كان عندهم من المسلمين واستبقوا الأمراء والوجهاء ومن كان له مال، فلما رأى صلاح الدين ذلك أمسك المال وأرسل أسرى الفرنج والصليب إلى دمشق[٣٥].

صلاح الدين وبوهيموند أمير أنطاكية:

أورد ابن الأثير وصفاً لبوهيموند جاء فيه أنه كان *«أعظم الفرنج شانا و أكثرهم سلطانا فإن الفرنج كانوا قد أسلموا إليه طرابلس بعد موت القمص، وجميع أعمالها مضافاً إلى ما كان له لأن القمص لم يخلف ولداً*[٣٦]». وذكر ضمن حوادث سنة ٥٨٨ أن صلاح الدين لما كان في بيروت *«أتاه بيمند (بوهيموند) صاحب أنطاكية وأعمالها واجتمع به وخدمه، فخلع عليه صلاح الدين وعاد إلى بلده»*[٣٧].

أما سمباد فقد فصل ما جرى في هذا اللقاء فقال:

«ضربت مجاعة عظيمة منطقة أنطاكية، ومن الصعب وصفها، إلى حد أن الأحياء كانوا يتمنون الموت على البقاء. في الربيع أكل الناس العشب كالأغنام، مما أدى بهم إلى الموت البطيء وقد مات في هذه السنة (١١٩٢) قيلج أرسلان سلطان قونية. فكر صلاح الدين أن يستغل الفرصة لاحتلال أنطاكية، ولكن المنجمين قالوا له لن تستطيع أخذها، ومع ذلك أعلن عن مشروعه مما زاد أهل أنطاكية مجاعة فبسبب خوفهم منه لم يستطيعوا جلب الغذاء إلى داخل بلدهم، عندئذ قال السكان لأميرهم: ها نحن نموت جوعاً ماذا عسانا أن نفعل؟ فقال: أمهلوني أسبوعين لأجيبكم ثم إن بوهيموند سار على رأس خمسين فارسا لمقابلة صلاح الدين وهو معسكر أمام عكا، وحالما وصل خيمة السلطان قال للحجاب قولوا له إن أمير أنطاكية هنا ويرغب في رؤيتك وعندما سمع السلطان ذلك هب للقاء الأمير وأمسك بيده وأدخله الخيمة، وأشار إليه بالجلوس فبادره الأمير قائلا عندي التماس، لن أجلس حتى تحققه لي، فأجابه صلاح الدين: ما تريده أ منحك إياه تكلم فقال الأمير: أسألك صدقة لأنطاكية. فقال السلطان موافق، وأكثر من ذلك سآمر لك ولبلدك بمؤونة ثلاثة أشهر. بعد هذه الاتفاقية عاد الأمير إلى أنطاكية التي امتلأت بالطعام»[٣٨].

هذا اللقاء بين الأمير بوهيموند والسلطان صلاح الدين كان يوم ٣٠ أكتوبر ١١٩٢م كما حدده كلود كاهن في كتابه القيم *«شمال سوريا في عصر الحروب*

الصليبية» وبينما ذكر سمباد أن اللقاء تم حول عكا نجد كاهن يرجح أن ذلك كان في بيروت بعد سقوط عكا بيد الصليبيين، وأن صلاح الدين قد منح بوهيموند ربع بعض المناطق المحيطة بأنطاكية مثل العمق(٣٩).

ولا ندري ماذا تم بينهما في هذا اللقاء إلا أننا نلمح من حديث سمباد عن قضية ليون الأرمني مع بوهيموند التي جاءت مباشرة بعد عبارة ***«في عام ١١٩٣ وبعد عودة الإمبراطور بوهيموند من صلاح الدين...»*** نلمح أن سمباد يشير من طرف خفي إلى أن موضوع كبح جماح ليون الأرمني كان ضمن الأمور التي بحثت في ذلك اللقاء. ولكي نفهم نص سمباد حول الصراع بين ليون وبوهيموند، يلزم أن نعود إلى سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٩م، حينما حاصر صلاح الدين بغراس، وهي قلعة تتحكم في الطريق من آسيا الصغرى إلى سوريا وبعد أن ضيق عليها الخناق سلمها أهلها إليه مقابل الإفراج عنهم مع ترك كل ما يملكون. وأخطأ صلاح الدين عندما هدمها ظناً منه أنه بذلك يحرم ليون من الاستفادة منها ولكن ما إن عاد السلطان حتى رجع ليون إلى بغراس وبناها وأصبح يهدد المدن الإسلامية، وإمارة أنطاكية، ثم اتجه صلاح الدين إلى أنطاكية، فخرج إليه صاحبها بوهيموند يطلب الهدنة، فوافق السلطان على هدنة لمدة ثمانية أشهر تبدأ من أول تشرين الأول إلى نهاية أيار وسير رسوله إلى صاحب أنطاكية يستحلفه ويطلق ما عنده من الأسرى(٤٠).

هذا ما ذكره ابن الأثير عن أمر بغراس ومدى تأثير القضية على علاقة صلاح الدين وليون الأرمني من جهة وبين هذا الأخير وبوهيموند من جهة أخرى، ذلك أن تمركز ليون في بغراس هدد المسلمين والصليبيين على حد سواء؛ الأمر الذي جعل أمير أنطاكية يخطط لاعتقال ليون وهو موضوع نص سمباد الآتي:

«عندما عاد الأمير من عند صلاح الدين سنة ١١٩٣ أخذ يخطط لأسر ليون، رغم معارضة زوجته التي قالت له: لا تقترف هذا العمل السيئ ضده لأنه صهري، إنه دائما يأتي لخدمتك ويشرك في مشاريعه العسكرية. ولكن الأمير استمر في مخططه المشين وأرسل إلى ليون يدعوه إلى أنطاكية، وبينما وصل إلى بغراس أرسلت إليه زوجة بوهيموند سراً تخبره بالمؤامرة، عندئذ أرسل ليون إلى الأمير وزوجته يدعوهما إلى بغراس، لضيافتهما والعودة معهما إلى أنطاكية، وعندما وصلا استقبلهما ليون بحفاوة ثم اقتاد بوهيموند إلى قلعة سيس تحت الإقامة الجبرية»(٤١).

«وفي السنة نفسها طلب صلاح الدين من ليون الجلاء عن سيس (*) دون أن يتعرض له بأذى ولكن ليون الذي أهمه الأمر لجأ إلى الله، فقال لرسول السلطان: قل له ليس لدي أرض لأتنازل له عنها، وإذا جاء فساروي سيفي ذا الحدين من دمه. وعندما سمع السلطان ذلك، زأر كالأسد وقرر دخول بلاد قليقية ليبيد قوم المسيح ولكنه عندما وصل نهر ساو، شعر بمرض شديد قضى عليه فخلفه ابنه الملك الظاهر»*[٤٢].

ولم يطل مقام بوهيموند في قلعة سيس، فقد أطلقه ليون بناء على وساطة من هنري دو شامباني بصفته ملكاً لملكة بيت المقدس، شريطة إقامة اتحاد وراثي بين أرمينية وأنطاكية حيث إن بوهيموند له ابن من زوجته الأرمنية، وعم أمه ليون، وقد عاش ريموند في كنف ليون ومات عام ١١٩٧م تاركاً زوجته حبلى بابنه الذي سمي باسمه وأضاف إليه ليون الاسم الأرمني روبين ليصبح ريموند - روبين[٤٣].

«وفي سنة ١٢٠٦ [الصحيح ١٢٠١] مات بوهيموند أمير أنطاكية فخلفه ابنه بوهيموند طرابلس مما جعل الملك ليون يرسل رسالة إليه يخبره» بأن أباه أفضى إليه بتعيين الإبن الأكبر من ريموند بوهيموند ولكن الكونت بوهيموند لم يشأ أن ينصاع للحق فأرسل الملك رسالة إلى بطريرك أنطاكية (بيير دانجوليم) ومعها الوثيقة التي وقعها بوهيموند (حين كان أسيراً عند ليون) ويطلب من البطريرك المطالبة بحقوق الوريث الشرعي وإلغاء عضوية الكونت، عندئذ أوقف البطريرك جميع الطقوس الكنسية من دق الأجراس وإشهار الأعياد ودفن الموتى، إذ لم يثب الكونت إلى رشده. ولكن الكونت قبض على البطريرك وألقاه في الحبس، وقال له: اعترف بأنني سيد أنطاكية الشرعي، وأمنحك الحرية والخلاص فرفض البطريرك ذلك وظل في السجن إلى أن مات من الجوع والعطش. منذئذ بدأ الصراع بين الملك والكونت»[٤٤].

يُفصِّل كلود كاهن هذه المسألة بين بوهيموند الثالث وبين ليون فيذكر أنه في سنة ١١٩٣م وأمام إلحاح ليون الأرمني بمطالبته بحق حفيده الطفل ريموند - روبين قام بوهيموند الثالث بإرسال الصبي وأمه إلى ليون لأن وجودهما يثير إشكالا سياسيا في إمارة أنطاكية، ولكن ليون أوجس خيفة فدبر اجتماعا في سيس حضره النائب البابوي كونراد دوماينس، اضطر فيه بوهيموند إلى أن يعترف ببوهيموند - روبين وريثاً له وذلك أوائل سنة ١١٩٨م[٤٥].

ولكن بوهيموند طرابلس أصر على حقه في حياة والده، وتدخل البابا أنوسنت الثالث في القضية وفجأة مات بوهيموند، وأصبح ابنه أميراً لأنطاكية باسم «بوهيموند الرابع» فطلب ليون تدخل الهيكليين الذين لم يشاؤوا أن يناصروه ضد ابن جلدتهم، وتشعبت المشكلة وقام تحالف بين بوهيموند والظاهر ملك حلب، وثارت الإسبتارية ضد بوهيموند فلقي منهم أذى عظيما، أما ليون فكان يتحرك بدهاء ويرسل الوفود إلى البابا، ولكن البابوية لم ترد مساعدته ضد اللاتين. وأدى بطريرك أنطاكية دوراً سياسيا وعسكريًّا ضد الأمير إلى أن مات في سجن أنطاكية سنة ١٢٠٩م[٤٦].

ظلت العداوة بين الملك ليون والأمير بوهيموند إلى سنة ١٢١٦م حين قرر ليون احتلال أنطاكية وهذا موضوع نص سمباد:

«في ١٤ فبراير عيد التطهر (يوم دخول العذراء، المعبد لكي تتطهر) احتل الملك أنطاكية وفي البداية لم يستطع احتلالها حرباً، فلجأ إلى رشوة بعض الأمراء الذين فتحوا أبواب المدينة ليلاً فاحتل القلاع والأبراج وغص البلد بالجنود، ولما أفاق السكان في الصباح فوجئوا بذلك فأصابهم الذعر ولكن أحداً لم يصب بأذى، واستقبل البطريرك الملك وروبين ومرافقيهم بحفاوة بالغة، واصطحبهم إلى كنيسة القديس بطرس، وقام البطريك بترسيم روبين أميراً لأنطاكية، وصلى له الجميع باعتباره سيدهم الوريث، واستسلمت الحامية المرابطة في إحدى القلاع بعد بضعة أيام، وبدا الملك ليون سعيدا بعودة أنطاكية أرمينية كما كانت تحت حكم روبين ذي المعدن الأصيل، والطراز الرفيع، والشعر الذهبي»[٤٧].

ومما قوى مركز ليون تزويجه ابنته ستيفاني من جان دو برين ملك بيت المقدس عام ١٢١٤م، إذ حظي بتأييد صهره، وكذلك البابوية والإسبتارية، وتصالح مع الداوية، الأمر الذي اضطر بوهيموند إلى الاستقرار في طرابلس، تاركاً أنطاكية يتمركز فيها الأرمن، فاستغل ليون الفرصة، وكاتب أعيان المدينة، وأجزل لهم الأعطيات والهدايا، ففتحوا له الأبواب ليلاً، وذلك يوم الأحد ١٤ فبراير ١٢١٦م، واحتلت قواته النقاط المهمة في أنطاكية، وعند طلوع الفجر، كان الأرمن سادة البلد. ودخل ليون بصحبة ريموند - روبين وتوجها نحو كنيسة القديس بطرس، وقدما فروض الولاء والطاعة إلى البطريرك اللاتيني الذي أعلن ريموند - روبين أميراً على أنطاكية وهو اللقب الذي لم يستطع بوهيموند الثالث الحصول عليه، واعترف له

البارونات واستسلم له أتباع بوهيموند، وكان بوهيموند قد أسرع لإنقاذ أنطاكية، غير أنه عاد من الطريق بعد أن علم بسقوطها(٤٨).

السلاجقة والأرمن :

«في سنة ١٢٠١ ذهب السلطان ركن الدين (سليمان الثاني بن قلج أرسلان) إلى الشرق بجيش كبير، واحتل مدينة ثيود وسيبولس التي تعرف باسم كارين سلماً لا حرباً، ثم أقام أخاه طغرل شاه (مغيث الدين) والياً عليها. وكان طغرل رجلاً رحيماً، تربطه بالملك ليون علاقة محبة وصداقة، كما أنه محب للنصارى، واستطاع السلطان بلوغ حدود جورجيا، ويهزم جيش الجرجيين (الكرج) أما أخوه السلطان فقد عاد إلى بلاده»*(٤٩).

وقد برهن سمباد في موقع آخر عن هذه العلاقة بين الزعيمين فقال:

«وفي سنة ١٢١١م سار طغرل شاه بجيش كبير لاحتلال قيصرية بتحريض من ليون الذي شاركه في حصارها. وقاد التحالف كيكوس أخو طغرل، ولكن بعد مرور عدة أيام لم يستطيعوا احتلالها عاد كل زعيم إلى بلاده»(٥٠).

بعد أن مات السلطان ركن الدين سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م حدث نزاع على الحكم بين أخيه وابنه، وقد تعرض سمباد لهذا باقتضاب: *«مات ركن الدين تاركا السلطة بيد ابنه سليمان شاه، وفي سنة ١٢٠٥ وصل خسرو من القسطنطينية للاستحواذ على ملك أجداده»*(٥١).

وهنا أخطأ سمباد، إذ إن سليمان شاه هو ذاته ركن الدين، والذي تولى بعده هو ابنه عز الدين قلج أرسلان الثالث بن سليمان شاه، الذي غلبه على الحكم غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان.

ويشرح لنا ابن الأثير القضية بوضوح فيقول: *«في هذه السنة (٦٠١هـ) في رجب ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد الروم التي كانت بيد أرسلان بن ركن الدين. وكان سبب ملك غياث الدين لها أن ركن الدين كان قد أخذ ما كان لأخيه غياث الدين، وهو مدينة قونية، فهرب غياث الدين منه، وقصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب فلم يجد عنده قبولاً وقصر به، فسار من عنده وتقلب في البلاد إلى أن وصل إلى القسطنطينية، فأحسن إليه وأقطعه وأكرمه، فأقام عنده، وتزوج بابنة بعض البطارقة الكبار»*(٥٢).

ثم يمضي ابن الأثير في سرد قصة تحالف كيخسرو مع حمية البطريرك الذي استقل بقلعة، بعد أن استولى الصليبيون على القسطنطينية، ولما مات ركن الدين، وتولى ابنه مكانه عارضه قوم من الأتراك، وكاتبوا كيخسرو فأسرع في المجيء وقبض على زمام الملك(٥٣).

الحملة الصليبية الخامسة:

يذكر ابن واصل أن السلطان الملك العادل سيف الدين أبا بكر، بنى عام ٦٠٩هـ قلعة على جبل الطور المطل على عكا. ***«ولم يكن بناؤه مصلحة، فإن الفرنج بعد ذلك قصدوه، وكادوا يملكونه، ولو ملكوه تعذر انتزاعه منهم وتمكنوا به من بلاد الإسلام، وقطعت غاراتهم الطريق على الديار المصرية»***(٥٤).

وقد عد الصليبيون ذلك إعلان حرب عليهم وخطوة لاحتلال عكا الأمر الذي جعل البابا انوسنت الثالث يعلن للنصرانية عام ١٢١٣م ***« أن المسلمين بنوا قلعة فوق الطور. المكان الذي صعد منه المسيح إلى ملكوته، وهذه القلعة تمحو الاسم النصراني وتهدد مدينة عكا»***. وتولى هذا البابا الدعوة لشن حرب صليبية ضد مصر مركز القيادة الإسلامية، لكنه مات في ١٦ يناير ١١٦٠م فخلفه البابا هونوريوس الثالث، الذي أرسل إلى الشرق جاك دو فيتري، ليكون أسقفاً لعكا وليشرف على وحدة الصليبيين ونصارى الشرق. ولكنه فوجىء بأن الشرقيين هم أقرب إلى المسلمين منهم إلى الفرنج، ما عدا الموارنة الذين سبق أن عبَّروا عن تضامنهم مع البابا هونوريوس وقام بطريركهم جيرمي بزيارة الفاتيكان وحضور مجلس اللاتيران، وأعلن على الملأ وحدة الكنيستين المارونية والرومانية. أما في أوروبا فقد استجاب للنداء البابوي، ليوبولد السادس دوق النمسا. وأندريه الثاني ملك المجر(٥٥).

وقد تحدث سمباد في نصه التالي عن هذين الزعيمين:

«في هذه السنة (١٢١٧م) وصل إلى عكا عن طريق البحر دوق النمسا (ليوبولد السادس) بجيش كبير وأندريه ملك المجر الذي جاء بكتيبة صغيرة، وتوجه دوق النمسا وملك بيت المقدس وزعماء الداوية والإسبتارية، والرهبان والنائب البابوي إلى مصر، حيث وصلوا إلى دمياط فلم يستطيعوا الوصول إلى أسوارها لوجود سلسلة تعترض السفن. فأقاموا السلالم واقتحموا البرج الأمامي حيث قاموا بمذبحة كبيرة، ثم صنعوا جسراً على النهر وانتقلوا إلى الضفة الأخرى. وحاصروا المدينة من كل جانب. من

جهة أخرى، وصل العادل سلطان مصر وأبناؤه المعظم والكامل والأشرف وعسكروا أمام الفرنج دون أن يفعلوا شيئاً لا من أجل المدينة ولا ضد الصليبيين». أما ملك الهنقار فإنه غادر عكا إلى بلاده في الوقت الذي توجه فيه الصليبيون إلى مصر(٥٦).

وقد صمت سمباد عن بقية قصة الحملة الصليبية الخامسة. ونكملها من ابن واصل الذي يذكر أن زعماء الفرنج اجتمعوا في عكا وتشاوروا ورأوا أن يغزوا مصر: ***«فالمصلحة أن نقصد أولاً مصر ونملكها، وحينئذ لا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد فصمموا على ذلك وركبوا البحر وقصدوا بجموعهم الديار المصرية، فوصلوها في شهر صفر من هذه السنة (٦١٥)، ونزلوا على بر الجيزة، بينهم وبين ثغري دمياط بحر النيل وكان على النيل برج منيع وفيه سلاسل من حديد غلاظ تمد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح إلى الديار المصرية»***(٥٧).

ولم يكن العادل موجوداً في مصر بل أمر ابنه الكامل بالتوجه إلى دمياط، وخاف أن تقع مصر بأيدي الفرنج، وبذل جهداً في سبيل إشغال فرنج الساحل عن مصر، ولكنه مرض، وتوفي سابع جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ. وقد أثر ذلك في معنوية المسلمين. أمّا الفرنج فقد زادوا من قواتهم، وشددوا الحصار على دمياط حتى سقطت فاحتلوا بر دمياط في العاشر من رمضان سنة ٦١٦هـ. عندئذ تراجع الملك الكامل إلى الجنوب وبنى المنصورة لتكون سدًّا منيعاً أمام تقدم الصليبيين واضطر الكامل إلى التنازل للفرنج عن فتوح صلاح الدين ما عدا الكرك والشوبك، مقابل الجلاء عن مصر فرفضوا إلا بدفع ثلاثمئة ألف دينار بدل أسوار القدس التي هدمت، وتسليم الكرك والشوبك فلم يتفقوا على شيء عندئذ قطع المسلمون خط الرجعة والإمداد على الصليبيين وذلك بين دمياط والبحر واستولوا على مركب عظيم فيه سلاح ومؤن كثيرة وكان لهذه الحادثة أثر في إنهاء الحرب حيث خضع الفرنج لشروط المسلمين بعد مرور أكثر من ثلاث سنين على مجيئهم، وتم الصلح في ٧ رجب عام ٦١٨ هـ(٥٨).

التحالف الأرمني المغولي:

في سنة ١٢٢٠م مات الملك الأرمني ليون الثاني تاركا الحكم بيد ابنته زابيل وفي عام ١٢٢٧م اجتمع الأمراء الأرمن وانتخبوا هيثوم بن قسطنطين ملكا عليهم(٥٩).

وقف سمباد في الجزء الأول من مؤرخته عند سنة ١٢٣٠م إذ ذكر وصول الإمبراطور الألماني فريديريك إلى الشرق وتسلمه القدس وذلك في سنة ١٢٢٩م لا كما ذكر سمباد، ثم استأنف الجزء الأول بسنة ١٢٥١م بذكر موت زابيل ابنة ليون وزوجة الملك هيثوم الأول[٦٠].

«في عام ١٢٥٣م غادر العاهل الأرمني هيثوم بلاده قليقية متوجهاً بقلة من الرجال إلى الشرق لمقابلة الخان مانج، واخترق جبال طوروس، وفي الطريق صادف مسلمين في منطقة قبادوقيا، واستعان براهب يعرف الطريق. وعندما قابل الخان قدم إليه هدايا قيمة قبلها بكل سرور ووافق الخان على ما طلبه منه هيثوم، واختار أحد عبيده لمرافقة الملك إلى بلاده، وفي شهر سبتمبر ١٢٥٦م عاد الملك الأرمني مظفراً، وشعر أنه كالأسد بين أعدائه، واستقبل من قبل أبيه قسطنطين وأبنائه وبناته وفي شهر أكتوبر من السنة نفسها جمع هيثوم مئة ألف من رجاله وجاس خلال بلاد السلاجقة، وغنم منهم عبيداً وماشية وذهباً وعاد إلى بلاده مسروراً»[٦١].

وقد تحدث الرحالة الغربي جيوم دو ربووك عن هيثوم وقال بأن الجميع كانوا ينتظرون وصوله، إلا أن الملك الأرمني وصل إلى أرض المغول بعد مغادرة جيوم بشهرين[٦٢]. وقد حدد المؤرخ جروسيه تاريخ وصول هيثوم بيوم ١٣ سبتمبر ١٢٥٤م[٦٣].

سقوط بغداد ٦٥٦هـ/١٢٥٨م:

يبدو أن هيثوم قد رتب مع المغول غزو الشرق العربي، وذلك لأن موقعه بين السلاجقة شمالاً، والمماليك جنوباً جعله يبحث عن حليف لتغيير ميزان القوى في المنطقة، فرأى في المغول القوة المرشحة لاحتلال مصر والشام بينما يختص بآسيا الصغرى ولهذا بادر بعيد عودته من الخان إلى تجهيز قواته وغزو المناطق الإسلامية في الأناضول.

تحدث سمباد عن احتلال المغول لبغداد ومزج الحقيقة بالخيال، فقد ظن أن الخلافة الفاطمية انتقلت إلى بغداد بعد ألغاها صلاح الدين، فهو يعتبر خليفة بغداد المعاصر للمغول من أصل فاطمي وبناءً على هذا الوهم فقد أورد رواية غريبة حول المفاوضات بين الخليفة العباسي المستعصم بالله وبين هولاكو:

«بعد أن صار المغول على مقربة من المدينة (بغداد) أرسل الخليفة إلى هولاكو رجلاً يقول له: ليذهب جيشك عنا بعيداً، فإني أخاف عليكم إن أنا

لبست معطف النبي أن أبيدكم إلا من كان مؤمناً. فضحك الخان وقومه من هذا الكلام وسخروا من الخليفة، وصكوا أسنانهم غيظاً عليه. ثم صاح هولاكو: بعون الرب ووصية جنكيز خان ستصبحون أيها المتدثرون بحماية النبي ضحية لسيوفنا البتارة، ثم اقتحم المدينة وأراق الدماء حتى تحول الفرات (الصحيح دجلة) أياماً عدة أحمر قانيا»(٦٤).

وقد ذكر ابن كثير في مستهل حديثه عن سقوط بغداد أن الخليفة المستعصم بالله عندما علم أن التتار في طريقهم إلى العراق خاف منهم، وفكر بإرسال هدايا عظيمة إلى هولاكو ولكن مستشاره الصغير أيبك ثناه عن ذلك مشيراً عليه بأن يبعث بهدية إلى هولاكو الذي رفضها وطلب من الخليفة إرسال أيبك لتأديبه ولم يفعل حتى وصل التتار إلى بغداد في محرم عام ٦٥٦هـ(٦٥).

ولا يعنينا هنا تفاصيل ما حدث في بغداد بل نهدف إلى تبيان الدور الأرمني في هذه المسألة، وهو الذي أوضحه سمباد في حديثه عن احتلال حلب ودمشق سنة ١٢٦٠م. وإذ قال.

«اتخذ الخان هولاكو وجيوشه، طريقه نحو الشرق، فاحتل المدن والقلاع صلحاً تارة وحرباً تارة أخرى، حتى إذا كان على مرأى من حلب أرسل إلى الملك هيثوم لينضم إليه، فأسرع الملك بجيوشه مسروراً، وما هي إلا سبعة أيام حتى استطاع الخان المنتصر أن يقتحم المدينة رغم مناعة أسوارها، وعمق خنادقها، فأعمل السيف في رقاب المسلمين بلا رحمة. دون أن يلحق النصارى أدنى أذى ولا أحد يستطيع تخيل هذه المذبحة، وبعد أن غنم هولاكو كثيراً وأسر عدداً كبيراً اتجه إلى دمشق ووضع كل المدن الإسلامية من حلب إلى القدس تحت وصاية كيتبوكا، ثم عاد وابنه أباقا إلى الشرق. ولكن كيتبوكا خرق أوامر الخان، الذي أمره أن يبقى في مكانه حتى ينظم جيشه، فقد جاءه من الملك الأرمني خمسمئة رجل مدداً حسب طلبه، ثم سار جهة مصر. ولكن الجواسيس المصريين عرفوا خطة التتار وطريق سيرهم وعلموا أنهم سيصلون بعد أربعة أيام إلى مكان يدعى (عين جالوت) عندئذ أسرع الجيش المصري نحو المكان والتقى الجيشان بعد شروق الشمس واحتدم الصراع، وكان الحر شديداً والخيول التترية مرهقة، فقتل كيتبوكا، وانهزم جيشه فمنهم من قتل، ومنهم من أسر ومن بينهم زوجة كيتبوكا وأبناؤه، أما الفارون فقد أخبروا الخان بما جرى فانتفخ كالأسد وتوعد بأخذ الثأر من المسلمين(٦٦).

ويبدو أن استراتيجية المغول قد تغيرت بعد هذه الهزيمة، فعمدوا إلى إنابة الأرمن عنهم في حرب المسلمين، ولم يتوان الملك هيثوم في الإغارة على المناطق الإسلامية شمال سوريا ولتحقيق ذلك ذهب هيثوم بنفسه إلى المغول، ملتمساً المساعدة «في شهر يونيو من عام ١٢٦٣ وصل الملك هيثوم إلى الخان هولاكو شاكياً إليه ما يتعرض له الأرمن من اعتداءات شعب كبادوقيا، ونظراً لمحبة الخان للملك فقد أرسل معه قضاة يرافقونه إلى سلطان الروم الذي قابلهم بالطريق. واتفق الجميع على السلام، وأصبح الملك والسلطان كالأب وابنه، وعاد كل إلى بلاده.»(٦٧).

ولا نجد فارقا كبيرا بين هذه الرواية وبين ما أورده ابن عبد الظاهر في كتابه «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» حيث قال:

«في هذه السنة (٦٦٢هـ) وصل هيثوم بن قسطنطين، متملك الأرمن خذله الله تعالى، من جهة هولاكو خزاه الله، ولما وصل لم يدخل بلاده، وتوجه إلى السلطان ركن الدين، صاحب الروم، فلما وصل إليه عزم على الإيقاع بهب على غرة، وأنه ينسب ذلك إلى التركمان، ففطن الطاغية، وكان قد استطحب قاضي بلاد هولاكو ليصلح بينه وبين السلطان ركن الدين، وأعطاه متملك الأرمن عطاء كثيراً، واستماله وقال: لا أقدر على الدخول إلى بلاد الروم حتى يحضر جماعة من التتار تخفرني. فكتب القاضي إلى التتار الذين في الروم، فحضر منهم جماعة تقدير أربعمئة فارس، فتوجه بعد ذلك، فالتقاه صاحب الروم مترجلا لأجل قاضي هولاكو، والأرمني لم يترجل، وقدم كل منهما لصاحبه تقادم سنية، وكانت تقدمة صاحب الروم أربعة عشر فرسا وأربعين ألف درهم، وجميع آنية المجلس ذهب وبغال وغيرها، وقدم له الأرمني أربعة حصن وجاؤوا جميعهم إلى هرقلة وتحالفا واتفقا»(٦٨). وبالنظر إلى حاجة الملك إلى عون المغول فقد أمده هولاكو بما يريد وندع سمباد يحدثنا عن ذلك:

«أرسل الخان هولاكو واحداً من قواده يدعى دوربا مع قوة قوامها عشرة آلاف مقاتل، استطاع بهم انتزاع البيرة على الفرات من المسلمين، وجعلها خراباً يباباً، وأرسل إلى الملك يطلب حضوره، فأرسل هيثوم مئتي رجل يتقدمونه إلى دوربا، ولكن الملك علم أن دوربا ترك البيرة لأن سلطان مصر في طريقه إليه. عندئذ عاد الملك أدراجه إلى بلاده»(٦٩).

ولا شك أن بيبرس يدرك جيداً الدور الأرمني مع المغول فقرر غزو سيس وعن ذلك يقول سمباد:

«توجه سلطان مصر بيبرس البندقداري يرافقه قائده سم الموت (عز الدين أوغان) نحو بلاد الأرمن وعندما وصل أنطاكية، عسكر حول النهر الأسود وكان هيثوم قد جمع قواته وعسكر شمال أنطاكية، وبث بيبرس عيونه لمعرفة الاستعدادات الأرمنية، ولما علم أن القوم جمعوا له، انتابه الخوف وعاد إلى بلاده، وبفضل الرب عاد هيثوم وجيشه إلى قلاعهم سالمين»(٧٠).

«وفي سنة ١٢٦٦ غزا سلطان مصر قلاع الإخوان ذوي المعاطف المعلمة بالصليب (الداوية والإسبتارية) وسلب منهم أرسوف وصفد، ثم اتخذ سبيله إلى سيس، وتوقف بضعة أيام في دمشق ومنها أرسل سفراء عدة إلى الملك هيثوم يعرض عليه السلام، وكان السلطان يريد فعلا السلم ولكنه اشترط تسليم مناطق أرمنية حدودية، فرفض الملك ذلك لخوفه أن يقول المغول لقد أصبح الملك تحت وصاية سلطان المسلمين، وتنازل عن القلاع التي حررناها له، وعندما حدد بيبرس طلبه في شيح الحديد قائلا: أعطني هذا المكان لأتخذ منه ممرا لي ولك. رفض الملك ذلك إذ كيف يرضخ سليل الملوك لعبد بن عبد. ولكن الملك آثر السلامة وأرسل إلى السلطان شخصيات بارزة، يحملون هدايا قيمة من أجل السلام، غير أن السلطان رفض الهدايا مصرًا على أخذ القلاع المطلوبة. وعاد إلى حلب ليرسل جيشاً بقيادة سم الموت، لحرب هيثوم، الذي ذهب بالجزء الأول من جيشه إلى المغول طالباً منهم العون، وكان الجزء الثاني مرابطاً في دورين، أما الثالث فقد تولى مقاومة الجيش المسلم، وتقدم نحو ماري يوم الإثنين ٢٣ أغسطس ١٢٦٦ وفجر اليوم التالي التقى الجمعان، ففر الأرمن دون قتال، تاركين في الساحة الملك ليون بن هيثوم وعدداً من رفاقه، قتل من قتل وأسر من أسر، ومن ضمن الأسرى ليون، واقتيد الجميع إلى سيس حيث حبسوا في أحد المعابد، ثم عاث المسلمون فساداً في البلاد حرقاً ونهباً وتدميرا وأعملوا السيف فيمن نجا، واستولوا على غنائم كثيرة باعوها بثمن غال في أنطاكية. ثم عادوا إلى السلطان الذي فرح برؤية ليون أسيراً عنده، وكأنه هدية نفيسة جاءته من بعيد، فأمر بتكريمه هو ومن معه من الأشراف»(٧١).

أما رواية ابن عبد الظاهر فقد تختلف عن رواية سمباد بعض الشيء: ففي حوادث سنة ٦٦٥هـ ذكر ابن عبد الظاهر أن السلطان أرسل الأمير عز الدين أوغان، بجيش لقتال الأرمن، في الوقت الذي كان فيه هيثوم قد تنازل عن الحكم في سيس

لابنه ليون، وانقطع هو للعبادة وهذا ما لم يذكره سمباد الذي قال إن هيثوم كان عند المغول وقت الغزو. أما ما يتعلق بالأعمال التي قام بها الجيش المملوكي فتكاد الروايتان تتفقان: حيث قال ابن عبد الظاهر: «**ورحلوا إلى سيس، فأخربوها وجعلوها خاوية على عروشها، وأصبح عاليها سافلها. وأقامت العساكر أياماً تحرق وتقتل وتأسر**»، ويؤكد ابن عبد الظاهر أن بين القتلى تتاراً وجماعة من الهيكليين (الداوية)(٧٢).

قضية سنقر الأشقر:

لقد ربط بيبرس بين إطلاق ليون بن هيثوم، وبين إفراج المغول عن الأمير شمس الدين سنقر، الذي أسره التتار في حلب، ودخل في خدمة أحد القادة «**فاقترح السلطان ـ كما يقول ابن عبد الظاهر ـ على صاحب سيس إحضاره عوض ولده، ورد القلاع التي أخذها من المملكة الحلبية، فسأل مهلة سنة إلى أن توجه إلى الأردو، وحقق خبره، وسير يعلم السلطان بأنه قد أجيب إلى إطلاقه. ووصل كتاب صاحب سيس بأنه حصله**». ولكن اختلف الطرفان في كيفية التسليم، وحضر وفد مفاوض من هيثوم، ومعهم رسالة من الأشقر تأكيداً على وجوده في سيس، ولكن الوفد تجاهل قضية تسلم القلاع. «**فردهم السلطان، وكتب إلى متملك سيس: بأنك إذا كنت قسوت على ولدك وولي عهدك أنا أقسو على صديق ما بيني وبينه نسب ويكون الرجوع منك لا مني، ونحن خلف كتابنا، ومهما شئت افعل بسنقر الأشقر.**» فلما قرأ هيثوم الخطاب، قدم إلى السلطان في أنطاكية، «**وتقرر الصلح على تسليم بهسنا، والدربساك، ومرزبان، ورعبان، والزرب، وشيح الحديد***، وكل ما أخذه من الإسلام وتسلم ما غنمه منها. وتقرر إطلاق سنقر الأشقر، وأن يطلق السلطان له ولده وولد أخيه وغلمانهما وانه يحضر رهينة فاساك أخا الملك وسير ريمون أخا زوجة ليفون ويبقى باسيل الماسور بن كند اصطبل رهينة هو وهؤلاء على تسليم القلاع وكتبت الهدنة بذلك في شهر رمضان (سنة ٦٦٦ هـ) بانطاكية»(٧٣).

ولنقرأ رواية سمباد في هذه القضية. «**عندما علم الملك هيثوم بالخبر (أسر ابنه) حزن قلبه، فأرسل مبعوثاً بهدية إلى السلطان يبحث معه مسألة إطلاق ليون ورفاقه، فتلكأ السلطان في إبداء شروطه، حتى يظل يستقبل الهدايا عبر رسل الملك، وكان هناك صديق أثير عند بيبرس (سنقر الأشقر) كان في خدمة سلطان حلب (الملك الناصر)، وعندما احتل الخان هولاكو حلب، هرب مع**

بيبرس، ولما كان جواد بيبرس مصاباً، فقد ترجل له صاحبه عن حصانه فهرب عليه بيبرس ولم يكن سلطاناً بعد، ومكث صديقه في مكانه حيث أسره جنود هولاكو وأخذوه معهم إلى الشرق. وصل بيبرس إلى مصر، ونجح في أن يكون سلطاناً فيها، وفكر في أمر مفاداة صاحبه بابن الملك ورفاقه، لأن هيثوم يعتبر مستشاراً مخلصاً للخان أباقا. فقال لرسل الملك، اذكروا للملكم أنه إذا حرر خشداشي من المغول، وأرسله إليّ سأطلق ابنه ليون. وما إن سمع الملك ذلك حتى توجه نحو الخان أباقا ومعه هدايا نفيسة، وحينما وصل إلى الخان في عام ١٢٦٧ م، توسل إليه أن يطلق سنقر الأشقر وهذا اسم صاحب بيبرس فقبل الخان بذلك فيما لو استطاع العثور عليه، وعندما لم يجد هيثوم سنقر أصابه اليأس وأرسل إلى بيبرس، يبلغه الخبر فرد السلطان: إذا لم يحضره إلي فلن أحرر ابنه. وفي عام ١٢٦٨ م أرسل الملك هيثوم الأمير ليون إلى الخان أباقا، وطلب من الخان السماح له بزيارة أماكن بعيدة من أجل البحث عن سنقر، فوافق الخان وبعث معه رجالا يحرسونه فوجده، ورجاه أن يرافقهم إلى سيس حيث أرسلوا إلى السلطان يخبرونه بوجود سنقر عندهم»(٧٤).

«فأرسل الملك صاحب السلطان سنقر الأشقر، وبعث أيضا كرهائن ابن أخته ريموند، وأخاه فاسك، وتم إطلاق ليون ورفاقه وسط ابتهاج الأرمن، وعاد معهم أيضا الرهائن. محملين بهدايا السلطان». ثم يتحدث سمباد عن فتح بيبرس أنطاكية فيقول:

«توجه السلطان إلى طرابلس وحاصرها وخرب ما حولها، ثم واصل طريقه إلى أنطاكية وحاصرها، وسقطت بعد ثلاثة أشهر في ٦ مايو، ١٢٦٧ وقام بمجزرة رهيبة. وأسر المصريون أعداداً كبيرة، وغنموا كنوزاً ثمينة، وكان ثمة أرمن سمح لهم السلطان بالذهاب إلى قليقية، وأذن لرجل الدين الأرمني وعائلته بالذهاب إلى بلاده، وقبل أن يتوجه السلطان إلى مصر، طلب من الملك هيثوم إرسال رهينة من أجل إطلاق ليون»(٧٥).

ولعلنا نتتبع نقاط الاختلاف بين الروايتين حول قضية سنقر الأشقر: تطرق سمباد إلى وجود بيبرس وسنقر الأشقر في حلب أثناء احتلالها من قبل المغول وهو الأمر الذي لم يذكره ابن عبد الظاهر وسرد سمباد حكاية هيثوم عندما لم يعثر على سنقر، ولم يورد ابن عبد الظاهر ذلك بل أكد على أن هيثوم أحضر الأشقر إلى سيس، وراوغ السلطان وأكد أن تبادل الرهائن جرى في جو ودي. أما حديث سمباد عما

صنعه المسلمون في أنطاكية، فهو يوافق ما قاله ابن عبد الظاهر أثناء حديثه عن فتح أنطاكية: ***«ولما فرغ السلطان من نهب أنطاكية رسم بإحضار المكاسب للقسمة، و عم الحريق أنطاكية وأخذ الناس حديد أبوابها ورصاص كنائسها»***(٧٦).

وتطورت العلاقة بين الملك هيثوم وبين بيبرس إلى حد أن الملك أدى دوراً في الوساطة بين السلطان والخان، فقد أخبر ابن عبدالظاهر أن هيثوم كتب إلى السلطان، يعرض عليه الوساطة فلم يمانع بيبرس ولم يمض وقت طويل حتى وصل إلى دمشق من أباقا ومعه هدية السلطان، ولكن الجانبين لم يتفقا على شيء(٧٧).

ومات الملك هيثوم (١٢٢٦ ـ ١٢٦٩م). وخلفه ابنه ليون الثالث (١٢٦٩ ـ ١٢٨٩م). الذي كان عند الخان في مهمة سياسية، وقد ذكر سمباد أن أباقا استقبله بحفاوة، وأغدق عليه الهدايا، في حين صمت سمباد عن فحوى المحادثات(٧٨)، ولكن المؤرخ الفرنسي الشهير جروسيه قال إن ليون قد طلب في زيارته هذه من أباقا مساعدته ضد المماليك(٧٩).

ويبدو أن ليون أراد أن يتحرر من الهدنة التي وقعها أبوه مع بيبرس ***«فقطع الهدايا - يقول ابن عبد الظاهر - التي كانت مقررة عليه، وخالف شروط الهدنة من أنه لا يجدد بناء، ولا يحصن قلعة»***(٨٠).

لذلك قرر بيبرس غزو بلاد الأرمن في عام ٦٧٣هـ / ١٢٧١ وحول ذلك يقول سمباد ***«في هذا العام سار بيبرس البندقداري إلى قليقية، ولكن الملك ليون أرسل إليه وفداً فاوضه فعاد أدراجه إلى مصر، ثم غادر الملك إلى الخان الذي منحه عشرين ألف مقاتل، ووعد أن يأتي شخصياً للدفاع عن الأرمن، فعاد ليون ومعه عدد قليل من هؤلاء الرجال»***(٨١).

أما ابن عبد الظاهر فقد ذكر أن السلطان أعد العدة لفتح بلاد الأرمن في رمضان سنة ٦٧٣هـ ***«وعيّد بمدينة سيس.. وانتهت مدينة سيس وهدمت وأحرقت»***(٨٢)، ولم يذكر أن السلطان رجع دون تحقيق هدفه كما قال سمباد.

حملة إدوارد الأول ملك الإنجليز:

يتحدث سمباد باقتضاب عن حملة الملك إدوارد الأول فيقول:

«في السنة نفسها (١٢٧١م)، وصل الملك* إدوارد بحراً إلى عكا بآلاف من جنوده ومكث ثمة ينتظر البقية»(٨٣). ثم يتنقل سمباد فجأة إلى موضوع محاولة اغتيال الملك إدوارد، تاركاً أخبار الحملة جانباً: ***«وفي السنة نفسها (١٢٧١م) كان أحد خدم الملك إدوارد قد قدم إلى عكا، فدخل إلى الملك ذات يوم، في خلوته***

وتظاهر لـه أن لديه سراً، ولما دنا منه ليسمعه طعنـه في صدره، فحاول الملك سحب سيفه بيده اليمنى فضربه الخادم»(٨٤). ويقف سمباد في تاريخه عند هذا الحد، ولكي يتضح للقـارئ أمر حملـة الأمير الإنجليـزي نذكـر بعضاً ممـا أورده رانسيمان عن هذه الحملة، فقد أرسل هنـري الثالث ملك انجلترا ابنه وولي عهده الأمير إدوارد في حملة صليبيـة إلى الشرق، وذلك بعد أن سمع بسقـوط أنطاكية (١٨ مـايو ١٢٦٨م)، ووصل عكـا في ٩ مـايـو ١٢٧١م بـألـف رجل. وكـان على قـدر كبير من السياسة والدهـاء، ويدرك جيداً أهمية التحالف مع المغول. لـذلك بادر بإرسال وفد إلى أباقـا الذي قال في رسـالته إلى الملك المؤرخة في ٤ سبتمبر ١٢٧١م: إنـه سيتعاون معـه ضد المماليك، وإن مسألـة زمن وصولـه بحدده مجلس عسكـري مشترك من الجانبين. ولكن بسبب ظروف سياسيـة، لم يرسل أباقا سـوى عشرة آلاف، جاسوا خلال الديـار، واحتلوا شمال سوريا، وفر النـاس منهم إلى دمشق والقاهرة، فأسرع بيبرس إلى قتـالهم لكنهم كانـوا قـد فروا بغنـائمهم إلى شرق الفـرات، وهكذا وجـد إدوارد نفسه في مأزق، فقلة جيشه، وفشل تحالفه مـع المغول، وموت لويس التاسع في تونس، إضافة إلى عدم استطاعته التنسيق مع الصليبيين، كل ذلك جعله يوقع مع بيبرس هدنة في ٢٢ مايو ١٢٧٢م لمدة عشر سنين وعشرة أشهر، تم بموجبها الاتفاق بينهما على بقاء السهل السـاحلي الممتد من عكا إلى صيدا ضمن مملكـة بيت المقدس، وتأمين الطريـق إلى الناصرة، ويؤكـد رانسيمان أن بيبرس أراد التخلص من إدوارد، حيث اتفق بيبرس مع أحـد الحشاشين، على اغتيـاله، ففي ١٦ يونيـو ١٢٧٢م دخل حشـاشي إلى حجـرة الأمير في هيئة مسيحي شرقـي، وطعنه بخنجـر مسمـوم، وظل يعاني من هـذه الطعنة شهوراً، ويصر رانسيمان على ضلوع بيبرس بهذه المحـاولة، فيذكر أن السلطان أرسل إلى إدوارد يُهنِّئُهُ بالسـلامة ليزيل عن نفسه التهمة، ومهما يكن فقد غادر عكا ٢٢ سبتمبر ١٢٧٢م(٨٥).

وإذا عدنا إلى رواية سمباد، نجده يـؤكد على أن الذي طعن الأمير الإنجليزي، عبد من عبيـده، ورجل من المقربين إليـه، بدليل أنـه دلف إلى غرفـة الأمير دون أن يمنعه أحد. أما عبد الظاهر فقـد ذكر أن الأمير إدوارد بعد أن وقع الفرنج الهدنة مع بيبرس ***«مـا أعجبه ذلك، ولم يـدخل الملك ورد (إدوارد) في الصلح، فرسم لابن شـاور والي الرملـة بعمل حيلـة في أمره، فسير إليه فـداوية أقـاموا عنـده، وسير ابن شاور المذكـور يتقرب إليـه، ويوهمه أنه يطـالعه بـالأخبار، وهـاداه وهادى زوجته وكل من حـوله على يد أحـد الفداوية ثم إن الفـداوي دخل إليه ليخبره***

بشيء من أخبار السلطان، ولم يكن عنده غير الترجمان فقفز عليه الفداوي ضربه في خمسة مواضع، في ذي القعدة وقتل الفداوي»(٨٦). والاختلاف بين ا لروايتين في هوية الرجل الذي حاول قتل الأمير، واتفقتا في الحدث، وانفرد ابن عبد الظاهر، بزج ابن شاور وهو بلا شك والي من قبل بيبرس، في أمر التخطيط لهذه العملية.

الهوامش

(١) انظر: رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ص ٤٥١ ـ ٤٥٨.

(٢) انظر: رانسيمان، المرجع السابق. جـ٢. ص ٥٢٣ ـ ٥٢٥.

(٣) انظر: نفسه. ص ٥٢٣ ـ ٥٣٩.

(٤) انظر: رانسيمان، المرجع السابق، جـ٢ ص ٥٥٧ ـ ٥٦٩.

(*) المصيصة، على شاطيء جيحان، شمال أنطاكية، وقرب طرسوس: انظر: ياقوت، جـ ٥ ص ١٤٥.

(٥) Smbat, La Chronique. p. 45.

(٦) Smbat. p. 46

(٧) Ibid.

(٨) Smbat. P. [.46 - 47.

(٩) Smbat. P. 47 - 48.

(١٠) رانسيمان، المرجع السابق، جـ٢ ص ٥٧٥ ـ ٥٧٦.

(١١) Smbat. p.45 - 50

(*) قورس مدينة على بعد عدة أكيال من رواندان، على مقربة من نهر عفرين. انظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤ ص ٤١٢.

(١٢) رانسيمان، المرجع السابق، جـ٢ ص ٥٧٥ ـ ٥٧٦

(١٣) Michel le Syrien, La Chronique. t.III. P. 333

(١٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ. جـ ١١ ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

(١٥) Smbat. p. 53

(١٦) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١١ ص ٥٢٦ _ ٥٢٧.

(١٧) La continuation de Guillaume de Tyre.p.54

(١٨) GROUSSET, Histoire des croisades, t.6 p.53

(١٩) Smbat. p.61

(٢٠) Ibid. p. 61 - 62

(٢١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١١ ص ٥٣٧.

(٢٢) Smbat.p.62

(٢٣) Ibid. p.62 -63

(٢٤) ابن الأثير، المصدر ا لسابق، جـ ١١، ص ٥٥٠.

(٢٥) Smbat. p. 63

(٢٦) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١١ ص ٥٤٨ _ ٥٤٩.

(٢٧) نفسه، جـ ١١. ص ٥٤٩.

(٢٨) La continuation de Guillaume de Tyre. p.72.

(٢٩) GROUSSET, Histoire des croisades. t.6p. 105 - 106

(٣٠) La continuation de Guillame de Tyre. p.85-86

(٣١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢ ص١٠.

(٣٢) Smbat.p.65 - 66

(٣٣) GROUSSET, Histoire des croisades. t.7. p.144

(٣٤) Smbat. p 66 - 67

(٣٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١٢ ص ٦٦ _ ٦٨.

(٣٦) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١٢. ص ١٩.

(٣٧) نفسه. ص ٨٧.

(٣٨) Smbat. p.67 - 68

(٣٩) CAHEN, La Syrie du nord. p. 432 - 433

(٤٠) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ ص٨٠٥.

(٤١) Smbat. p. 68

(*) النطق الفرنجي سيليسي، وهي سيسية وسيس، من أعظم الثغور بين أنطاكية وطرسوس: ياقوت، جـ٣ ص ٢٩٧.

(*) ظن سمباد خطأ أن خليفة صلاح الدين هو ابنه الظاهر، والصواب هو أخوه العادل.

(٤٢) Smbat, p.69

(٤٣) Ibid. p. 71 - 72

(٤٤) Smbat. p. 84 - 85.

(٤٥) CAHEN, Op.Cit. p.591

(٤٦) رانسيمان، المرجع السابق، جـ٣ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٦.

(٤٧) Smbat. p. 89 - 90

(٤٨) حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٦.

(*) هي أرزن الروم، مدينة أرمنية مشهورة قرب خلاط: انظر: ياقوت، جـ١ ص ١٥٠.

(٤٩) Smbat. p. 82 - 83

(٥٠) Ibid. p. 88

(٥١) Ibid. p 83

(٥٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢ ص ٢٠٠.

(٥٣) نفسه، جـ١١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٥٤) ابن واصل، مفرج الكروب في تاريخ بني أيوب، جـ٣ ص ٢١٥.

(٥٥) GROUSSET, Histoire des croisades t. 7 p.17 - 18.

(٥٦) Smbat. p. 90-91

(٥٧) ابن واصل، المصدر السابق، جـ٣ ص ٢٥٣.

(٥٨) ابن واصل، المصدر السابق، جـ٣: انظر: حوادث السنين ٦١٥ ـ ٦١٨.

(٥٩) Smbat. p.92

(٦٠) Ibid. p.96

(٦١) Ibid. P.98 - 100

(٦٢) GUILLAUME DE RUBROUCK, voyage dans l'Empire Mongol p.204.

(٦٣) GROUSSET, L'Empire du Lrvant. P.397.

(٦٤) Smbat. p. 101 - 102

(٦٥) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣ ص ٢٠٠.

(٦٦) Smbat . p. 104 - 107

(٦٧) Ibid. p.111 - 112.

(٦٨) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٩١ _ ١٩٢.

(٦٩) smbat. p.113 - 114

(٧٠) Smbat. p.115

(٧١) Smbat. p. 116 - 119

(٧٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٦٩ _ ٢٧٠.

(*) هذه المواقع جهة بلاد الأرمن: بهسنا، قلعة قرب مرعش وسمبساط: ياقوت، جـ١ ص ٥١٦، دربساك: مضيق بين طرسوس وبلاد الروم: ياقوت، جـ٢ ص ٤٤٧، شيح الحديد من قرى حلب ويسمى الشيحة: ياقوت، جـ٣ ص ٣٩٧.

(٧٣) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٢٧ _ ٣٢٩.

(٧٤) Smbat. p. 119 - 120

(٧٥) Smbat. p.120 - 122

(٧٦) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٢٣ _ ٣٢٤.

(٧٧) نفسه، ص ٣٣٩ _ ٣٤٠.

(٧٨) Smbat. p.123

(٧٩) GROUSSET, L'Empire du Levant. p.399

(٨٠) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٤٣٢.

(٨١) Smbat. p. 124

(٨٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٤٣٤.

(*) نشير هنا أن إدوارد عندما قام بحملته هذه، كان أميراً، ولم يصبح ملكاً إلا بعد عودته إلى بلاده.

(٨٣) Smbat. p. 124

(٨٤) Ibid. p. 125

(٨٥) انظر: رانسيمان، المرجع السابق، جـ٣ ص ٥٧٣ _ ٥٧٩.

(٨٦) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٤٠١.

GROUSSET,Histoire des croisades. t.8. p.150 - 153

المصادر والمراجع

الفرنسية:

CAHEN (C) . La syrie du Nord à l'Epoque des Croisades. Geuthner. Paris. 1940.
Grousset (René), Histoire des Crousades et du Royaume de Jérusaème. Tallandier. Paris.1981.
L'Empire du Levant, Payot. Paris 1941.
Guillame de Rubrouk, Voyage dnas l'Empire Mongo. trad. et commentaire de Claude er René Kappler. Payot, Paris. 11985.
La continuation de Guillaume de Tyre, (1184 - 1197), publiée par Margaret Morgan. Geuthner. Paris. 1982.
Michel Le Syrien, La Chronique. trad, en franç. JB. chabot. E.L.E Paris. 1905.
Smbat, la chronique attribué au connéctable smbat.trad. et notés Gérard dédéyan, Geuthner. Paris. 1980.

العربية والمترجمة.

ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد. ت ٦٣٠هـــ)، الكامل في التاريخ. دار صادر. بيروت ١٩٦٦م.

ابن عبـد الظـاهـر (محيي الديـن. ت ٦٩٢هــ)، الـروض الـزاهـر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الطبعة الأولى. الرياض. ١٩٧٦م.

ابن كثير (أبو الفـداء الحافظ. ت ٧٧٤هـ)، البـداية والنهايـة، دار الفكر، بيروت. ١٩٧٨م.

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم. ت ٦٩٧ هـــ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. تحقيق جمال الدين الشيال. دار القلم. القاهرة. ١٩٦٠م.

ياقوت الحموي (ت. ٦٢٦هـــ)،يمعجم البلدان. دار إحياء التراث العربي. بيروت ب.ت.

حسين محمد عطيـة، إمارة أنطـاكية الصليبيـةو المسلمون (٥٦٧ ـــ ٦٦٦هـــ/ ١١٧١ ـ ١٢٦٨م). دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية. الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

رانسيمان (ستيفن)، تاريخ الحروب الصليبية، تـرجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت. الطبعة الثانية. ١٩٨١م.